

ذكر الديار والأوطان في الشعر وآي القرآن

أستاذ مشارك - قسم الأدب والنقد والبلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

د. صديق عبد الرحمن إبراهيم موسى

المستخلص:

تناول البحث ذكر الديار والأوطان في الشعر وآي القرآن. أتت أهمية البحث بالنظر إلى أهمية موضوع ذكر الديار والأوطان كواحد من الأغراض الأساسية والضرورية بالنسبة لأدباء العرب في الجاهلية والذي أولوه إعتبارا كبيرا فجعلوه في مقدمة قصائدهم من مختاراتهم الشعرية فكان مفتتح كل قصيدة عصماء ومستهل كل شعر جامع، ولقد حفل القرآن العظيم بذكر الديار والأوطان مما أضيف صبغة تأصيلية لهذا الغرض وجعله مجالا للبحث. هدف البحث إلى إبراز الصور المتعددة لإستعمالات الديار والأوطان عند العرب وأسباب ذكرها في القرآن الكريم، خاصة وأن العرب أودعت تلك الأسباب ميولاتها الأدبية وأهوائها الشخصية، بينما اقتصر القرآن على ما يهتم الناس عامة من العرب وغيرهم، فكان إعمار الأرض من جميع جوانبها المادية والمعنوية من أهم الأغراض التي جاء بها القرآن العظيم. انتهج البحث المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي. وخرج البحث بعدة نتائج البحث منها: تمثل الأطلال في الجاهلية مادة ثقافية لشغل الفراغ، دون العناية بإعمار الأرض واستصلاح الأوطان، ولا توجد خطة لبناء المستقبل المادي والإجتماعي، وليس للديار حرمة دينية فالحياة تعج بالفساد في الثقافية والمجتمع والسياسية. وخرج البحث بعدد من التوصيات منها؛ الإلتفات إلى الشعر العربي القديم وصونه خاصة الجاهلي. وقياس حضارات الأمم السابقة بالحضارة الإسلامية لترقية تلك الحضارات، وتشجيع كتابة الأبحاث المهمة بالتراث العربي والإسلامي.

كلمات مفتاحية: أدب الجاهلية، الأطلال، الأوطان، القرآن الكريم.

The Homeland Literary In Arab Poetry and Holy Quran Dr.Sediek Abdul Rahman Ibrahim Musa- Co-professor

Abstract:

The research aimed to show the homeland literary in the Arab poetry and the holy Quran, the research went about the personal orientation of Arab poets, the holy Quran concerned by the human benefit, reconstructing, mending. The main purpose was very important, it used as poem opening, the Quran included many verses gives more authenticity to the main subject, the result included that, the main subject was cultural subject to fill the social emptiness, no concerning to reconstruction, future materialistic plan, no any concerning to religious sanctity, the corruption is any where, Culture, social Community, politics, the disaster will not refer to Allah power because of the ignorant era theology, the poem opening by main subject, woman list for attractive the emotions, the remembrance flairs the main subject, the homeland stated in the holy Quran promoting the human life, justice, reconstructing, civilization, Allah power, boones, stability, repent, worship and unifies Allah.

Keywords: Pre-Islamic literature, ruins, homelands, the Noble Qur'an.

المقدمة:

إن سجية البشر تملي ملازمة ذكر الديار والأوطان ما دامت الحياة تدب في الأجساد وعجلة المجتمع تدور مع الأيام، فالديار هي مضمار الحياة والأوطان مأوى الحضر والبداءة، ولا ينفك اللسان يلهج بتزديد ذكريات الماضي من تاريخ البشرية متأملاً تلك الديار التي ظلت المأوى لكل من عاش على وجه البسيطة، وفي هذا البحث نتطرق لذكر تلك الديار في أشعار من مضى من البشر، وخاصة عصر ما قبل الإسلام حيث كان يعرف ذكر الديار والأوطان بذكر الأطلال، ولقد تردد ذكر الأطلال كثيراً في أشعار العرب في الجاهلية وكان ذلك الغرض الشعري من لوازم الحياة التي كانت في غاية البساطة، فكانت الديار والأوطان تمثل عدة وعتاد ذلك الشعب فالحياة المادية مفرغة إلا من مشاهد الكون المنظور الذي يعد قاسماً مشتركاً بين جميع الناس، واكتسبت خصوصية الديار بعداً من الإهتمام الأدبي إحتفاءً بتلك الآثار التي لا يستغني عنها القطن.

لقد رأينا أن نتناول تلك الأشعار التي ضمنتها العرب ذكريات مساكنها وجعلتها مسرحاً لفصول حياتها واعتزت بها بإعتبارها مهذا لأجدادها، وتناولت تلك الذكريات مظاهر متعددة مرتبطة بالأوطان استخدمت في أسباب متعددة من الخير والشر والفرح والسرور والحزن والثبور، ومن تلك الأغراض: ذكر المعالم وما بقي منها من رسم أو أثر، وخاصة ديار الأحبة وما يطوف منها بالخيال، وتذكر أيام الصبا ومعاهد الطفولة وما أحدثته دورات الزمان من تبدل وتحول في

ظل المكاره والثارات والحروب، وأحداث الحياة من المطر والحر والبرد والمحل والخصب والكلأ والأوبئة، وذكر ما يتصل بتلك الحياة وما يوتر فيها من البيئة المحيطة المتحركة من الوحوش والهوام والأعداء، والبيئة المادية من الجبال وأماكن خيام الشعراء والمحبوبة وأبناء العمومة ومضمار السباق، والأثافي والرّماد ومجري المياه والأوتاد والبساتين والأودية، ومصارع الأبطال وأماكن دفن الموتى وكل ما يكون فيه دليل على عظيم الحسرة، وعميق الأسف، والمظاهر كثيرة يقصر عنها الذكر تأتي في مجملها للإستهلاك الثقافي. ولقد تناول البحث ذكر الديار والأوطان في القرآن العظيم وهي أكبر وأعظم وأوسع رؤية من نظرة العرب الجاهليين لحياتهم المحدودة، فالقرآن الكريم تناول ذكر الديار والأوطان لأسباب متعددة لا تحتتمل الشك في صحتها وموضوعها، ولا تقبل تصارييف ورغبات العرب الجاهليين في تحمیل الديار والآثار معاني وآراء شخصية تتحكم فيها طبيعة المجتمع العربي وتوجهاته، ومن هنا تنشأ الفروق في إستخدام تلك المظاهر الكونية والآثار الدنيوية للديار التي تستوعب حياة الناس وفق ما يرضاه الله تعالى، فأثار الديار في القرآن تتناول ذكر ديار الأمم السابقة وأسباب حياتهم ومظاهر عيشتهم وأبنيتهم ونقوشهم التي ما زالت باقية على جنبات الجبال وسفوحها، فهناك أمم هالكة بسبب طغيانهم وما زالت أثار الهلاك وأماكنه باقية إلى يومنا هذا، ولقد جاء في القرآن ذكر ديار ثمود وعاد وأمم أخري، ويتناول البحث طبيعة تلك الأسباب وتفاوتها وأهميتها والمغزي من ذكرها، والوقوف على الآثار التي خلدها الشعر الجاهلي، وتلك الآثار والديار والأوطان التي خلد ذكرها القرآن الكريم وأوجب الإطلاع عليها والإعتبار بتذكرها لمعرفة الغرض الأساسي منها وهو إعمار الأرض وإصلاحها.

إن ذكر الديار والأوطان عند شعراء الجاهلية يعبر عنه بذكر الأطلال والآثار، ولقد أكثر شعراء العرب من ذكر الأطلال والأماكن والبكاء عليها بعدما خلت عن الأحبة، وذكر الأشجار الصحراوية، كالأثل والضال والأراك والبان وغيرها، وذكر الجمل والحادي والسري، والحمام والنسائم والغمام.⁽¹⁾

لقد استحوذ ذكر الديار على جانب كبير من المخزون الثقافي للعرب والذي كان لا يتعدى ملاً الفراغ الإجتماعي لقطع الزمن وإستهلاك الأيام والليالي، دون عناية بإعمار الأرض واستصلاح تلك الأوطان، ولقد كان ذكر الأطلال يمر بالمجتمع العربي كغيره من المواد الثقافية المستفاد منها لشغل أفراد المجتمع الذي لم يكن له خطة واضحة لبناء المستقبل المادي والإجتماعي.

نجد شعراء الجاهلية ينحون على الأطلال ويلتاعون بها ويرتمضون منها وهي أحجار وآثار وبقايا؟ وما الذي يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة؟ يتلقاهم بالفراغ القلبي الذي لا يملؤه من الوجود كله إلا وجود شخص واحد؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا ملياً كأنها انتهت إلى نهاية النفس العاشقة.⁽²⁾

إن لأثر فراق الحبيب قدرة ساحرة لجمع الماضي في لحظة من الزمن تحول الحياة إلى فكرة تحلق بالشاعر في دنيا المثل الروحية وتحمل النفس للإحساس بالموت أو الحياة وتدعوها لهم والحزن، لأن القلب يفرغ ساعة من الدنيا ويمتلئ بذكرى الحبيب وحده فيخفق ويزداد الشوق والحنين، وتهيج الزكريات وينطلق موكب الأشعار في ذكر الأطلال.

لقد علل ابن قتيبة بناء القصيدة العربية واستهلالها بالبكاء على الأطلال ثم الانتقال إلى وصف الرحلة والنسيب، ليميل الشاعر نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي إصغاء الأسماع لأن التشبيب قريب من النفوس لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام؛ فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فأبن قتيبة يؤمن أن بناء القصيدة على هذه المقدمات إنما كانت تستدعيه الرغبة في لفت الانتباه، وإشراك السامعين في عاطفة الشاعر، وهي عاطفة تسهل المشاركة فيها لأنها قريبة إلى القلوب جميعاً؛ كما يرى أن مبنى القصيدة لابد أن يظل متناسب الأجزاء معتدل الأقسام فلا يطيل في قسم منها فيمل السامعين، ولا يقطع وبالنفوس ظمناً إلى مزيد.⁽³⁾

وأول من ذكر الأطلال من شعراء الجاهلية امرئ القيس، وجاء في شرح ديوانه للمصطفى: مهما طال الحديث عن شعر (الملك الضليل) يبقى ناقصاً ما لم يتناول معلقته التي أولاهها الأقدمون عناية بالغة، وجعلها الرواة فاتحة كتبهم، وعُني بها الدارسون فترجموها إلى عدة لغات أجنبية، فذهب بعضهم إلى أن الدافع الذي دفع امرأ القيس إلى نظم المعلقة هو يوم دارة جلجل حيث التقى بعنيزة ابنة عمه تتنزه مع العذارى فذبح لها ناقته، ومطلعها: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل، يقول ابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة) وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد⁽⁴⁾. تناول امرئ القيس وصف الأطلال واستهله بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفيها وقوف على أطلال الديار، وسرد مواضع المنازل، وآثار الظباء وحنين إلى الأحبة الذين فارقهم وينتهي عند قوله:

وإن شفائي عبرة مَهْرَاقَةٌ فهل عند رَسْمِ دَارِسٍ من مَعْوَلٍ

إن امرأ القيس لم يسبق الشعراء؛ لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيه؛ لأنه أول من لطف المعاني ومن استوقف على الطلول وقرب مأخذ الكلام فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه، منها ذكر الطلول والالتفات إلى الأبواب والتفنن في الأوصاف، وقد ترك امرؤ القيس مذهباً شعرياً هو الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، سار عليه الشعراء من بعده.⁽⁵⁾

قال طرفة بن العبد في معلقته:

وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ
لِخَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِرِقَّةٍ تَهْمِدِ
يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلِدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ عُدْوَةٌ
تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلِدِ
خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ⁽⁶⁾

طرفة بن العبد أحد مشاهير معلقات العرب يبتدء معلقته بذكر الأطلال متحسرا على فراق أرض محبوبته، وهو يقف بديار أهلها مظهرا الأسى ليجد العزاء من أصحابه (لا تهلك أسى وتجلد) مما يدل على أن بكاء الأطلال كان من أبرز أغراض الشعر عند الجاهليين، وجاء في شرح الأبيات: لهذه المرأة أطلال ديار بالموضع الذي يخالط أرضه حجارة وحصى من ثمهد، فتمع تلك الأطلال لمعان بقايا الوشم في ظاهر الكف، شبه لمعان آثار ديارها ووضوحها بلمعان آثار الوشم في ظاهر الكف.⁽⁷⁾

وأنشد لبيد بن ربيعة العامري:

لَمْ تُبَيِّنْ عَنْ أَهْلِهَا الْأَطْلَالَ قَدْ أَتَى دُونَ عَهْدِهَا أَحْوَالَ
لَيْسَ فِيهَا مَا إِنَّ يُبَيِّنُ لِلْسَا لِيْلِ إِلَّا جَاذِرٌ وَرِئَالٌ⁽⁸⁾

في البيتين أعلاه يذكر لبيد بن ربيعة العامري الأطلال في قصيدته التي هي غير معلقته الشهيرة وهذا يدل على أن كبار الشعراء يزينون أشعارهم وقصائدهم بذكر الأطلال، مما يؤكد أن ذكر الديار مرتبط بالمحبة وتنقلها في البادية أكثر من ارتباطه بالأسباب الأخرى، ففي البيت الأول يتساءل الشاعر عن تحول عهد المحبوبة بسبب ظننها مع ذويها فلا يدري إلى أين كانت وجهتها مما يثير الحيرة في نفسه.

وقال النابغة الذبياني:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلا كي أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأيا ما أبينها والنؤي كالخوض بالمظلومة الجلد⁽⁹⁾

يذكر الشاعر أولا دار مية بأماكن العلياء والسند وكيف أنها خلت من الأحبة بعد أن كانت مأهولة فطال عليها الزمان، وتذكر وقفوفه فيها طويلا، وأصيلا أي عشيا، وليس بالدار من أحد إلا الأواري من محابس الخيل، وحواجز التراب من حول البيوت والخيام لئلا يصل إليها الماء، والمظلومة من الأرض التي لا عمارة فيها ولا حجارة، فنرى الشاعر تناول مظاهر مختلفة للأطلال وأحوال متنوعة.

وقال ذو الرمة:

نعم هاجت الأطلال شوقا كفى به من الشوق إلا أنه غير ظاهر
فما زلت أطوي النفس حتى كأنها بذى الرمث لم تخطر على بال ذاكر
حياء واشفاقا من الركب أن يروا دليلا على مستودعات الضائر⁽¹⁰⁾

وهذا ذو الرمة يذكر الأطلال وما هيجهته من الأشواق في نفسه في الخفاء إذ أنها إحساس معنوي لديار الأهل والأحبة والعشيرة، ولم يزل الشاعر يكابد الشوق والحنين في نفسه في طيات الغيب البعيد الذي لا يمكن أن تتخيله النفوس، فالأحبة مقامهم في الضمير والقلب فهو مستودعهم، ولقد مكن البحر الطويل بتفصيلاته الواسعة من استيعاب تلك المعاني التي أرادها الشاعر، وذو من شعراء العصر الإسلامي (ت117) ولكن أوردنا شعره مع الجاهليين لأنه كان ناقدا لشعرهم

وتأثر بشعر الأطلال أكثر من غيره من شعراء زمانه، قال صاحب العمدة في محاسن الشعراء: الشعراء ثلاثة: جاهلي، وإسلامي، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز، على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء، وإنما كان واصف أطلال، ونادب أظعان.⁽¹¹⁾ ويوضح ابن قتيبة الطبع أكثر حين يقول: والشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعدّر عليه الهجاء فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيهاً، وأجودهم تشبيهاً، وأوصفهم لرملة وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية⁽¹²⁾. ولقد أوردنا شعر ذي الرمة مع الشعراء الجاهليين لألتقاءهم معهم في الجودة والتفرد بالإكثار من هذا النوع فقد كان إمتداداً لهم ولذلك جعلناه جسراً بين الحقتين الجاهلية والإسلامية.

قال عمر بن ربيعة:

أم تسأل الأطلال والمتربعا	بيبطن حليات دوارس بلقعا
فبيخلن أو يخبرن بالعلم بعدما	نكأن فؤاداً كان قدماً مفجعا
بهند وأترابٍ لهند إذ الهوى	جميعٌ وإذ لم نخش أن يتصدعا ⁽¹³⁾

وهذا عمر بن ربيعة ينتهج سبيل من سبقه من الشعراء في ذكر الأطلال وتذكر المحبوبة والتأثر بها وهذا دأب كبار الشعراء في الجاهلية فقد اتخذوا موضوع الأطلال وبكاء آثار الديار مفتحة لقصائدهم، وفي ذلك يقول الزوزني في شرح المعلقات:

تترأى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء، وما يركبونه من إبل وخيل، وكثيراً ما يشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون في تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاءً أوفخرًا أو عتاباً أو رثاءً. وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها.⁽¹⁴⁾

يقول ذو الرمة:

وقفتُ على رُبْعِ لَمِيَّةٍ ناقتي	فما زلتُ أبكي عندهُ وأخاطبُهُ
وأُسقيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُّهُ	تُكَلِّمَنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ
كَأَنَّ سَحِيقَ الْمَسْكِ رِيًّا تُرَابَهُ	إِذَا هَضْبَتُهُ بِالْعَشِيِّ هَوَاضِبُهُ
نَظَرْتُ إِلَى أَظْعَانٍ مَيِّ كَأَنَّهَا	مَوْلِيَّةٌ نَخْلٌ تَمِيلُ ذَوَائِبُهُ
فَأَبْدَيْتُ مِنْ عَيْنِي وَالصَّدْرُ كَاتِمٌ	مُغْرورِقٍ مَمَّتْ عَلَيْهِ سَوَاكِبُهُ
مَتَى تَطْعَنِي يَأْمِي مِنْ دَارِ جِيرَةٍ لَنَا	وَالهَوَى بَرَحٌ عَلَى مَنْ يَغَالِبُهُ ⁽¹⁵⁾

الشاعر يتناول في هذه الأبيات ذكر ديار المحبوبة عندما وقفت ناقته بدارها ولم يجد صاحبته مي فجعل يخاطب الديار المغفرة حتي كادت تخاطبه وتكلمه آثارها من الملاعب والأحجار وهو يجد ريح المحبوبة وآثار عطرها في تراب ديارها، وما زال يوم الطعن والإرتحال ينحت في ذهنه بطيف خيالها وهي تتعد عن ديارها وكأنها نخل يلوح من بعيد وقد لاعتبه الرياح فهو يميل يمينا وشمالا وقد حكي لوحة ظعن المحبوبة في صورة لا تنسي وهي تفارق الديار، ثم يكتف

جراح الفراق في صدره ولا يعبر عن ذلك الحزن إلا الدموع المنهمرة، ونجده يحمل أنهما تلك الدموع إلي ارتحال محبوبته من جواره وهو يعاني أشد تباريح الهوى، وقال ذو الرمة بعد ذلك هذه اللوحة الشعرية الناطقة:

وهل ذاك من داء الصبابة نافع
من الأرض إلا قلت هل أنت رابع
تحبي بها أو أن ترش المدامع
منازل مي والعراض الشواسع
فما أنت فيما بين هاتين صانع
بنا وبكم من علم ما بين صانع
لترجعني يوماً إليك الرواجع⁽¹⁶⁾

قف العيسَ تنظرُ نظرةً في ديارها
فقال أما تغشى لميةً منزلاً
وقلّ إلى أطلال مي تحيةً
ألا أيها القلبُ الذي برحّث به
ولا بدّ من ميٍ وقد حيل دونها
وقد كنتُ أبكي والنوى مُطمئنةً
وأعمدُ للأرض التي من ورائكم

جاء في معلقة لبيد بن ربيعة:

مِنى تَأبَدَ عَوْلَهَا فَرَجَامُهَا
خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيَ سِلَامُهَا
جَجَّ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا
وَدُقُّ الرِّوَاعِدِ جَوْدَهَا فَرَاهُمَا
وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِزْرَامُهَا
بِالْجَلْهَتَيْنِ طِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا
عُودًا تَأَجَّلَ بِالْفَضَاءِ بِهَامُ
زُبُرٌ تُجَدُّ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا
كَيْفًا تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا
صُمًّا حَوَالِدَ مَا بَيْنَ كَلَامُهَا⁽¹⁷⁾

عَفَتِ الدِّيَارَ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا
فَمَدَافِعُ الرِّيَانِ عُرَى رَسْمُهَا
دَمَنْ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنْبَسِهَا
رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا
مِنْ كُلِّ سَارِيَّةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ
فَعَلَا فُرُوعَ الْأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ
وَالْعَيْنُ سَاكِنَةٌ عَلَى أَطْلَانِهَا
جَلَا السَّيُولُ عَنِ الطَّلُولِ كَأَنَّهَا
أَوْ رَجَعُ وَاشِمَةِ أُسْفَ نُّوْرُهَا
فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سُؤْلُنَا

في هذه اللوحة الشعرية الناطقة يقول لبيد: عفت ديار الأحباب وانمحت منازلهم ما كان منها للحلول أو الإقامة، موضع منى، وتوحشت الديار الغولية والرجامية لارتحال قطانها وسكانها، وتوحشت مدافع جبل الريان لارتحال الأحباب والجيران عنها، وغيرت رسوم هذه الديار فعريت خَلَقًا بسبب السيول ولم تتمح بطول الزمان، فكأنه كتاب ضمن حجرًا، فبقي أثره مع مر الأيام، وانقطعت بعد عهد سكانها بها وقد مضت بعد ارتحالهم عنها سنون بكمالها، ورزقت تلك الديار والدمن أمطار الأنواء الربيعية وأصابها مطر الرعود من السحاب فأعشبت لتترادف الأمطار المختلفة عليها، من كل مطر سحابة سارية أو غادية يلبس آفاق السماء بتراكمه، في عشية تتجاوب أصواتها ورعودها، فعلت بها فروع النبت وأصبحت الطباء والنعام ذوات أطفال بجانب وادي هذه الديار؛ والبقر الواسعات العيون قد سكنت وأقامت على أولادها ترضعها فصارت قطيعًا في تلك الصحراء، التي تحولت إلى مغنى للوحوش بعد كونها مغنى الإنس، وكشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها، فكان الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها، فشبه كشف السيول عن

الأطلال التي غطاها التراب بتجديد الكتاب سطور الكتاب الدارس، وظهور الأطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها، أو كأنها زبر أو ترديد واشمة في دارات ظهر الوشام فوقها، فأعادتها كما تعيد السيول الأطلال إلى ما كانت عليه، فجعل إظهار السيل الأطلال كإظهار الواشمة الوشم، وجعل دروسها كدروس الوشم، ثم يقول في البيت الأخير وقفت أسأل الديار وكيف أسائل أشياء صماء لا تتكلم وهي جامدة وخالدة في مكانها لا حركة ولا حياة فيها بعد ارتحال الأحبة عنها.⁽¹⁸⁾

قال عنتر بن شداد العبسي:

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا
وَتَحَلَّ عَبَلَةٌ بِالْجَوَاءِ وَأَهْلُنَا
حَبِيبَتٌ مِنْ طَلَلٍ تَقَادِمَ عَهْدُهُ
حَلَّتْ بِأَرْضِ الرَّأْرِيِّينَ فَأُضْبَحَتْ
فَدَنْ لَأَقْضِي حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ
بِالْحَزَنِ فَالْصَّمَانِ فَالْمُتَلَمِّمِ
أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْئِمِ
عَلَيَّ طِلَابُكَ ابْنَةَ مَحْرَمِ⁽¹⁹⁾

يقول عنتره حسبت ناقتي في دار حبيبتي ووقفتها فيها لأقضي حاجة المتمكث جزعي من فراقها وبكائي على أيام وصالها، وهي نازلة بهذا الموضع وأهلنا نازلون بموضع أخرى، ولقد حبيت من جملة الأطلال، بعد أن تقادم العهد بالأهل وخلت الديار من السكان بعد ارتحال المحبوبة عنها ونزولها بأرض أعدائي فعسر علي طلبها.

وقد تميز شعر عنتره بما تميز به الشعر العربي عموماً من وقوف على الأطلال ذلك أن هذه الظاهرة هي التعبير الصادق عن حنين الشاعر وعن عاطفته، فما الأطلال إلا تلك المواطن التي عاش فيها الشاعر أو مر بها أو حدثت معه فيها حادثة هزت قلبه أو عصفت بوجدانه. والحديث عن الأطلال يقودنا إلى الكلام عن الغزل عند عنتره الذي هو غزل عذري يعني بالمرأة من خلقها وصفاتها ويعني بها كمثل كما يهدف إلى التغني بجمال نفسها.⁽²⁰⁾

قال الأعشى:

ما بكاء الكبير بالأطلال
دمنه قفرة تعاورها الصي ف
وسؤالي فما يرد سؤالي
بريحين من صبا وشمال

بكاء الكبير استفهام على نفسه كأنه يستخبر غيره من بكاءه الأطلال وأي شيء يجدي على سؤاله دمنة من آثار الناس وما سودوا فهي قفرة لا أنيس بها ولا ماء ولا مرعى وتعاورها الصيف واختلفت عليها رياحه فمرة تسفي عليها الصبا ومرة الشمال.⁽²¹⁾

قال زهير بن أبي سلمى:

ديارٌ لها بالرَّقْمَتَيْنِ كأنها
بها العين والارام يمسين خلفه
وقفتُ بها من بعد عشرين حجة
أثافي سَفْعًا في معرَسِ مِرْجَلِ
مراجِعُ وَشَمٍ في نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
وأطلأوها ينهضن من كل مجثم
فلأيا عرفت الدار بعد توهم
ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلَّم
ألا انعم صباحاً أيها الرِّبْعِ واسلم⁽²²⁾

وواضح في هذا المطلع الذي يصف فيه زهير الطلل أنه يعتمد في تصويره على التفاصيل وأن يعطي كل جزء حقه؛ فهو باحث محقق، وهو يطلب في شعره أن يكون أكثر بياناً ودقة وتفصيلاً لما يتحدث عنه، ويحاول أن يصوره، فهو من الشعراء المصورين الذين يحاولون عرض المناظر أمامنا بكل أجزائها وتفصيلها؛ ولذلك نراه يذكر في نموذجيه حين يتحدث عن الأطلال الأثافي والنوى حتى تتم الصورة بجميع دقائقها، على أن مقدرته في «التصوير» تظهر في جانب آخر هو استخدام الألفاظ والعبارات التي تجعل المنظر بارزاً ناطقاً، وانظر في البيت الثالث إلى هذه الوحش التي اتخذت دار صاحبته مقاماً؛ فإنك تراها تمشي أمامك خلفه، أي في جهات متضاده، وقد نهضت أطلأوها الصغار وانتثرت هنا وهناك؛ فانظر كيف استعان على بث الحركة في المنظر باستخدامه لكلمة «خلفه» ثم انظر إلى تلك الأفعال المضارعة التي وضعتها اللغة للدلالة على الأحوال المنظورة؛ فإنه يأتي بها ليجعلنا نبصر حوادثه الماضية، وكأنها تجري تحت أعيننا، وانظر إلى البيت الرابع وما وضع فيه من تحديد «الزمان» حتى يؤثر في أنفسنا، ثم انظر إلى تلك التحية الهادئة في البيت الأخير⁽²³⁾. فهو يُخاطب الرِّبع على ما جرت به عادة العرب في مخاطبة الأطلال والربوع بعد ارتحال أهلها عنها وهو على سبيل الدعاء أي أنعم صباحاً لقد هيجت أحزاني حين نظرت إليك تذكر لما سلف لي فيك من وصل الأجيّة ونحن مسلمون عليك فاررد علينا وهذا مما يدل على كثرة الوله لفقده الأجيّة لأن الجمادات لا تقدر على الكلام فكأنه من وله على الأجيّة لم يدر ما يقول⁽²⁴⁾.

لقد استعرضنا عدداً غير قليل من الصور الشعرية واقفين مع فحولة الشعراء من أيام الجاهلية الزاخرة بالإشارات والرموز حول آثار البلدان التي اندثرت من أمثال يوم اليمامة والعماليق الذين ذكروا فيه، و حرب البسوس ومعمرية، ويوم المشقر وذلك الحصن، وإن الشعر الجاهلي لم يكن إلا صدًى وتعبيراً عن تلك الأيام، فتوقف الشاعر على الأطلال ذلك الشعور العميق بالأسى والفقدان الذي يعاينه عندما يرى الأطلال دارسة مدمرة، لأن الحياة كانت موجودة في ذلك المكان المهجور إلا أنها اتخذت صورة أخرى فالقبيلة تبدأ بالرحلة حين يموت الخصب، والمرأة تفارق الشاعر في حالة من التوتر والحزن.⁽²⁵⁾

لقد استخدم الشاعر الجاهلي ذكر الديار والأوطان قي تذكر المحبوبة لأن هذا الغرض تعمق في ذهنه بصورة مباشرة وكانت الديار المعنية هي ديار العرب التي وجدوا عليها آبائهم وأجدادهم ولم يرحوها إلي غيرها من البلاد، وكان الشعور بالإنتماء للديار والأوطان في الجاهلية جزءاً من إعتقادهم بأنها أغلى من دماءهم، ولما كانت تلك الحقبة يشوبها الجهل جاء ذكر الديار والأطلال فيها تخليداً لذكريات الهوى وتلبية لرغبة النفس وأحياناً تكون تلك الذكريات تأصيلاً لظروف الحياة المختلفة، فكان ذلك تمهيداً وأمتداداً لذكر الديار والأوطان في القرآن الكريم لكسر عادات الجاهلية التي لا تتفق مع مبادئ الإسلام الذي جعل من أرض الله دياراً وموطناً لجميع خلق الله ولذلك نجد أن النسيج الإجتماعي للجاهلية ذاب أمام تعاليم الإسلام فقطن جزيرة العرب الأعاجم بعد أن أعطاهم الإسلام حق المواطنة وإتخاذ الديار.

ذكر الديار والأوطان في آي القرآن:

إن ذكر الديار والأوطان في القرآن الكريم يأتي من أجل البناء والتعمير المادي والأخلاقي، وإن الله جل شأنه خلق الديار والأوطان من أجل تحقيق الإستقرار، وإقامة ميزان العدل، ووضع نظام أساسي لحياة الناس في هذه البسيطة، ولذلك نجد أن ذكر الديار يدور مع إعمار الأرض وترقية الحياة فيها وإخماد نار الشر والأهواء الصادرة من بعض الأمم التي عصت الله تعالى، وكذلك جاء ذكر الديار لبيان آثار رحمة الله من الخير والرزق والأمن والإستقرار، وإظهار قدرة الله ودعوة الخلق للإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، وفيما يلي نستعرض المعاني الواردة في آيات ذكر الديار من كتب التفاسير مع حذف المكرور منها والأكتفاء بالأسباب والأغراض من الآيات دون إعادة لتلك الموضوعات.

قال الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (26) ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَمَّا جَاءَ قَضَاؤُنَا فِي قَوْمِ شُعَيْبٍ بَعْدَ ابْنَانَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ فَصَدَّقُوهُ عَلَى مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ مَعَ شُعَيْبٍ، مِنْ عَذَابِنَا الَّذِي بَعَثْنَا عَلَى قَوْمِهِ، بِرَحْمَةٍ مِنَّا لَهُ، وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ عَلَى مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ. وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ مِنَ السَّمَاءِ أَخَمَدَتْهُمْ فَاهْلَكَتْهُمْ يَكْفُرِهِمْ رَبِّهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً أَخْرَجَتْ أَرْوَاحَهُمْ مِنْ أَجْسَامِهِمْ (27). إن الدار المذكورة في هذه الآية الكريمة قد أصبحت عليهم نعمة بعد أن كانوا متنعمين فيها، فالدار هذه قبل نزول القرآن كانت محلا للحساب والعقاب، فالقرآن الكريم قول الحق لم ينقل إلينا إلا العدل.

(الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٌ حَقٌّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (28).

أذن الله للذين يقاتلون، بنصب التاء، وضمها وكسرها وفتحها، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، يعني: قادر، وكان المشركون لا يزالون يؤذون المسلمين باللسان وباليد، فشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما هاجروا، أمروا بالقتال، ثم أخبر عن ظلم كفار مكة، فقال عز وجل: الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٌ حَقٌّ، يعني: بلا جرم أجموا، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ، يعني: لم يخرج كفار مكة المؤمنين بسبب، سوى أنهم كانوا يقولون: ربنا الله، فأخرجوهم بهذا السبب، ثم قال: وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بِالْجِهَادِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَكِفِّ الظُّلْمِ، يقول: لولا أن يدفع المشركين بالمؤمنين، لغلِب المشركون فقتلوا المؤمنين، لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَيُقَالُ: لولا دفع الله بالأنبياء عن المؤمنين وبالمؤمنين من غيرهم، لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى، وَصَلَوَاتٌ، يعني: كنائس اليهود، وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ، يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وقال مجاهد: لولا دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض في الشهادة في الحق، لهدمت هذه الصوامع، وما ذكر معها، وقال الزجاج: تأويل هذا: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض، لهدمت في شريعة كل نبي المكان الذي يصلي فيه،

لهدم في زمان موسى عليه السلام الكنائس، وفي زمن عيسى عليه السلام البيع، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء المساجد.⁽²⁹⁾

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهم جزء أصيل من عرب الجاهلية، ولكن مفهوم الديار قد اختلف فالشعور القوي الذي كان لدى العرب بأن جزيرة العرب هي ملك لهم وأن السيادة والريادة والملك في هذه الأرض ما زال من إرثهم القديم، الواقع إن مفهوم الديار أصبح مرتبطاً بموجّهات الشرع وحق المواطنة أصبح مكفولاً لكل من أسلم من العرب والعجم، فإذا كان الظن السائد لدى العرب أن أرضهم في الجاهلية أكثر حماية، فهذا مفهوم قديم لأن حماية موطنهم العربي أصبحت تحت مظلة الإسلام بأمر الله تعالى، وهذا أكثر عزة ومنعة، ولترك الديار أغراض وأسباب منها:

الهجرة في سبيل الله وفي هذا ابتعاد عن الأذى وهي عبادة نابغة من القلب والشوق إلى دار الهجرة وهي المدينة المنورة وغيرها من الأماكن وهذا أعظم وأكبر من البقاء في دار الكفر، الشعور بالظلم والإطهاد من أقوى الدوافع للفرار من مواطن فتنة الدين، الإحساس بالكبت من ممارسة شعائر الدين وهذا معني ظلم الكفار للمسلمين بسبب إسلامهم وقولهم لا إله إلا الله، الإبتعاد عن الديار الفاسدة والإقامة في الديار الطيبة.

وقوله تعالى: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، يعني: لينصرن بالغلبة على عدوه من ينصره بنبيه ﷺ، ويقال: لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ يعني: ينصر الله من ينصر دينه ثم قال: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ أَي: منيع قادر على أن ينصر محمداً صلى الله عليه وسلم بغير عونكم، قوله عز وجل: الَّذِينَ إِنْ مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ، يعني: إن أنزلناهم بالمدينة، وهم أصحاب محمد ﷺ. قوله: أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، يعني: بالتوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وَتَهُوُا عَنِ الْمُتَكَبِّرِ عَنِ الشَّرْكِ. وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ، يعني: لله ترجع عواقب الأمور، يعني: عاقبة أمور العباد في الآخرة. ومن أسباب الإبتعاد عن الديار التمكين في دين الله تعالى، ومن أغراض ترك الديار نشر الدين وتوسيع رقعة الإسلام، وجاء في قوله تعالى {وَأُورَثَكُمْ أَزْهَمُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} ⁽³⁰⁾، يعني أورتكم عقارهم، ونخلهم، ومنازلهم، وأموالهم من الذهب والفضة والحلي والعبيد والإماء، {وَأَرْضًا لَمْ تَطَّئُوهَا} بأقدامكم بعد، وهي مما سيفتحها الله عليكم، يعني خيبر، فتحها الله عليكم بعد بني قريظة، وقال قتادة: هي مكة، وقال الحسن: هي فارس والروم، وقال عكرمة: هي كل أرض يظهر عليها المسلمون إلى يوم القيامة، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاقِبَةً} من القرى أن يفتحها على المسلمين ⁽³¹⁾. جاء ذكر الديار في الآية للغنيمة وتحقيق النصر فكم كان هذا السبب غنياً بقيمته العالية. وقوله: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا} ⁽³²⁾.

المعنى فإذا جاء وعد أولى المرتين، (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)، يروى أنه بعث عليهم بختنصر، (فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)، أي فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه، والجوس طلب الشيء باستقصاء ⁽³³⁾. وذكر الديار في الآية مقرون بالبطش والقتل.

مساكنهم كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ⁽³⁹⁾. وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّ قَوْمَ هُودٍ قَالُوا لِهُودٍ: أَتُوعِدُنَا بِالرِّيحِ، وَأَيُّ الرِّيحِ تَصْرَعُنَا وَتَهْلِكُنَا، فَرَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلِكَ الَّذِي هُوَ عَلَى خِزَانَةِ الرِّيحِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مِنَ الْخِزَانَةِ فَقَالَ: وَكَمْ أُرْسَلُهُ؟ فَقِيلَ لَهُ: عَلَى مِقْدَارِ مَنْخَرِ الثَّوْرِ، فَقَالَ: إِذَا تَقَلَّبَ الْأَرْضُ مِنْ فِيهَا. فَقِيلَ لَهُ: عَلَى قَدْرِ حَلَقَةِ الْخَاتَمِ فَأُرْسِلَتْ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ فَجَعَلَتْ تَطِيرُ بِالظُّعْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَتَحْمَلُ الرَّاعِي مَعَ غَنَمِهِ وَإِبِلَهُ وَتُرْوِحُهَا إِلَى الْهَوَاءِ، ثُمَّ تَطْرَحُهَا عَلَى الْجِبَالِ وَتَشْدُهَا، وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ بِجَمِيعِ عَادَ حَتَّى أَهْلَكْتَهُمْ، وَفِي التَّفْسِيرِ: أَنَّهَا كَانَتْ تَحْمَلُ الرِّجَالَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى يَرَى كَالْجِرَادِ، وَكَانَ هَذَا الْعَذَابَ مَسْخَرًا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَمِائِيَةِ أَيَّامٍ حَسُومًا عَلَى مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّ هُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَزَلَ بِقَوْمِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَخَطَّ لَهُمْ خَطًّا، وَكَانَتْ الرِّيحُ فِي ذَلِكَ الْخَطِّ أَلْيَنَ رِيحًا وَأَطْيَبَهَا، وَهِيَ تَعْمَلُ بِقَوْمِهِ الْعَجَائِبَ. وَرَوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَأُرْسِلَتْ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ، وَهِيَ مِنْ صَخْرٍ، وَأَغْلَقُوا الْأَبْوَابَ، فَفَتَحَتْ الرِّيحُ أَبْوَابَهُمْ وَنَزَعَتْهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ، وَأَهَالَتْ الرَّمَالَ عَلَيْهِمْ حَتَّى أَهْلَكْتَهُمْ تَحْتَ الرَّمَالِ، وَإِنْ أَنْبَأَ بَعْضُهُمْ يَسْمَعُ تَحْتَهَا⁽⁴⁰⁾. ذَكَرَتْ الدِّيَارُ مَقْرُونَةَ بِالْعَذَابِ وَالِدِمَارِ، (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)⁽⁴¹⁾.

المعنى اجعلوا بيوتكم من بيوتهم مباءة لقومكم ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه واجعلوا بيوتكم تلك قبلة أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة. فإن قلت: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)⁽⁴²⁾، ذَكَرَتْ الدِّيَارُ مَقْرُونَةَ بِالتَّخْوِيفِ وَالْخِرَابِ.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ الْآيَاتِ، قَالَ الْمَفْسُورُونَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِأَسْرَافِهَا فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ صَالِحَهُ بَنُو النَّضِيرِ عَلَى أَلَّا يِقَاتِلُوهُ وَلَا يِقَاتِلُوهُ مَعَهُ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدْرًا وَظَهَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَتْ بَنُو النَّضِيرِ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي وَجَدْنَا نَعْتَهُ فِي التَّوْرَةِ: لَا تَرْدُ لَهُمْ رَايَةَ⁽⁴³⁾. وَلَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الدِّيَارِ فِي الْآيَةِ لِبَيَانِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى نَصْرَةِ دِينِهِ وَتَخْذِيلِ الْكَافِرِينَ وَعِزِّاً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَكَذَا تَتَنَوَّعُ آيَاتُ اللَّهِ فِي أَغْرَاضِهَا مِنْ ذِكْرِ الدِّيَارِ، وَلَقَدْ تَشَابَهَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ فِي غَرَضِهَا وَمَوْضُوعِهَا فِي عِدَدٍ مِنَ السُّورِ، وَلَقَدْ أَكْتَفَيْنَا بِذِكْرِ مِثَالٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ غَرَضٍ لِتَجَنُّبِ التَّطْوِيلِ.

الخاتمة:

لقد استحوذ ذكر الديار في أشعار العرب الجاهليين على جانب كبير من المخزون الثقافي للعرب والذي كان لا يتعدى ملاً الفراغ الإجتماعي لقطع الزمن وإستهلاك الأيام والليالي، دون عناية بإعمار الأرض واستصلاح تلك الأوطان، ولقد كان ذكر الأطلال يمر بالمجتمع العربي كغيره من المواد الثقافية المستفاد منها لشغل أفراد المجتمع الذي لم يكن له خطة واضحة لبناء المستقبل المادي والإجتماعي، ولم يكن للديار والأوطان حرمة دينية في الجاهلية لذلك كانت تعج بالفساد المجتمعي في جميع مناحي الحياة الثقافية والإجتماعية والإدارية السياسية، كما أن النوازل والحوادث التي تمر بها الديار والأوطان لم يكن مردها إلى قدرة الله تعالى وتصرفه في هذا الكون، لأن المعتقد في الله لم يكن سليماً بالنظر إلي خصوصية الحقبة الجاهلية.

كانت القصيدة العربية تفتتح بالبكاء على الأطلال ثم الانتقال إلى وصف الرحلة والنسيب والتشبيب بالنساء وذكر أحوالهن، ليميل الشاعر نحوه القلوب بالعاطفة ويستدعي إصغاء الأسماع للغزل وإلف النساء، وهذا غرض لا يستغني عنه الناس بحلال أو حرام، ولذلك نجد شعراء الجاهلية ينوحدون على الأطلال وهي أحجار وآثار وبقايا، لتبدأ ثورة الحرمان بفراغ المكان من الأربة بعد الرحيل، ليثور بركان الذكريات وكأن الدنيا قد توقفت وكأن الفراق بلا عودة.

لقد أمّلت طبيعة الحياة في الجاهلية ذكر الديار لتناسبها مع تقلب الأيام، فهي مضمار الحياة وعنوان الحضر والبداءة، ولا ينفك اللسان من ترديدها لأنها المأوى لكل من عاش على ظهرها، واكتسبت خصوصية الديار بعدا من الإهتمام الأدبي إحتفاء بتلك الآثار التي لا يستغني عنها القطان، فضمنتها العرب ذكريات مساكنها وجعلتها مسرحاً لفصول حياتها واعتزت بها بإعتبارها مهذا لأجدادها ومسرحاً لطفولتها، وأحداث الحياة من مكاره وثرارات وحروب، وخير وسرور تجدد صونها ورعايتها.

لقد وقفنا على آيات ذكر الديار في القرآن العظيم ووجدناها تعمل على ترقية المجتمع البشري بأكمله ولم تكن محصورة على أمة أو ملة دون الأخرى، فالخطاب في القرآن العظيم موجه لجميع البشرية، وذكر الله الديار لإقامة ميزان العدل، وجاءت أخبار الديار في الكتاب العزيز لتدور مع عظيم قدرة الله من القهر فوق عباده بالعدل، وبين الإنعام والإحسان لعباده بالرحمة، فالخسف والتعذيب وإرسال الصيحة والريح ومباغطة العصاة بالعذاب المفاجئ، وتبديل أحوال الأمم إلي النعيم والبركات والأمن والإستقرار كل ذلك آيات بينات للإعجاز والإعتبار، للتوبة والإنابة وعبادة الله بالإقلاع عن الشرك وإقامة دين التوحيد، ونشر هذا الدين وإظهاره والدعوة إليه، ولقد خلص البحث إلي نتائج عدة.

النتائج:

تمثل الأطلال في الجاهلية مادة ثقافية لشغل الفراغ، دون العناية بإعمار الأرض واستصلاح الأوطان، ولا توجد خطة لبناء المستقبل المادي والاجتماعي. ليس للديار حرمة دينية فالحياة تعج بالفساد في الثقافية والمجتمع السياسية، ولا ترد النوازل إلى قدرة الله فالمعتقد فاسد لخصوصية الزمان. يفتتح الشعراء القصيدة بالبكاء على الأطلال ثم وصف الرحلة والتشبيب بالنساء لإمالة القلوب، وكانت أحداث الحياة تأجج ذكريات الأطلال. إن ذكر الديار في القرآن العظيم يعمل على ترقية المجتمع البشري لإقامة ميزان العدل، وأعمار الأرض وصون الحضارة البشرية وبيان عظيم قدرة الله في القهر والعدل، والإنعام بالبركات والأمن والإستقرار والإتعاض والتوبة والإنابة وعبادة الله وحده ونبذ الشرك وإظهار الدين والدعوة إليه.

التوصيات:

- الإلتفات إلى الشعر العربي القديم وصونه خاصة الجاهلي.
- قياس حضارات الأمم السابقة بالحضارة الإسلامية لترقية تلك الحضارات
- الإهتمام بالبحث في موضوعات الأدب العربي.
- تشجيع كتابة الأبحاث المهمة بالتراث العربي والإسلامي.

الهوامش:

- (1) أبو الطيب محمد صديق خان، نشوة السكران من صهباء تذكارات الغزلان، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة: الأولى، 1338 هـ - 1920 م، ص84
- (2) مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد، وحي القلم، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1421 هـ-2000 م، ج3 ص118.
- (3) المرجع السابق ج3 ص119
- (4) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، الديوان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، 1425 هـ - 2004 م، ص 15
- (5) حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَنِي، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1423 هـ - 2002 م، ص33.
- (6) طَرْقَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، 1423 هـ - 2002 م، ص19
- (7) (الزوزني، شرح المعلقات السبع، مرجع سابق، ص 89
- (8) (ليبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، الديوان، دار المعرفة، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م، ص80
- (9) أبو عمرو الشيباني، شرح المعلقات التسع، تحقيق وشرح: عبد المجيد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1422 هـ-2001 م، ص85
- (10) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، تاريخ النشر 1418 هـ ج2 ص197
- (11) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401 هـ - 1981 م، ج1 ص1
- (12) المرجع السابق، ج1 ص204
- (13) أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم، الأمالي، دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، 1344 هـ - 1926 م، ج2 ص49
- (14) الزوزني، شرح المعلقات السبع، مرجع سابق، ص6
- (15) الخالديان أبو بكر الخالدي، وأبو عثمان الخالدي، حماسة الخالدين، بالأشبه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين تحقيق: الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة، سوريا، 1995 م، ص 81
- (16) المرجع السابق
- (17) ليبيد بن ربيعة، الديوان، مرجع سابق.

- (18) الزوزني، شرح المعلقات السبع للزوزني، مرجع سابق، ص 89
- (19) دبوان عنتره بن شداد
- (20) الزوزني، شرح المعلقات السبع، مرجع سابق، ص 243
- (21) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أدب الكاتب (أو أدب الكتاب، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ص 269
- (22) ديوان زهير بن أبي سلمى
- (23) أحمد شوقي عبد السلام ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية عشرة، ص 28
- (24) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، شرح ديوان المتنبي ج 2 ص 377
- (25) عفيف عبد الرحمن، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى 1987 ص 207
- (26) هود 94
- (27) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م، ج 12 ص 559
- (28) الحج 40-41
- (29) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، بحر العلوم، ج 2 ص 462
- (30) الأحزاب 27
- (31) علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1994م، ج 3 ص 467
- (32) الإسراء 5
- (33) إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م، ج 3 ص 227
- (34) الممتحنة 8
- (35) سبأ 15-17
- (36) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (مرجع سابق) ج 3 ص 490
- (37) العنكبوت 38-40
- (38) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - ج 6 ص 251
- (39) الأحقاف 25
- (40) منصور بن محمد السمعاني، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997م، ج 5 ص 160

(41) يونس 87

(42) الحشر 1-4

(43) أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج 9 ص 266